المرأة والامة

—

كل من تعلم من المصريين وساعده حسن الحظ على ان يستعرف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها يعلم ان الامة المصرية دخلت اليوم فى دور مهم بل في أهم دور من تاريخها

انى لا أجد في ماضيها عصراً انتشرت فيه المعارف وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنية وانبث الامن والنظام في انحاء البلاد وتهيأت الاسباب للتقدم مثل العصر الذي نعيش فيه الآن . ولكنها من جهة اخرى لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضه للخطر مثل ما هى في هذا الزمن . فان تمدن الامم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه الى جميع انحاء المسكونة فلا يكاد يوجد منها شبر الا وطئه بقدمه . وكلما دخل في مكان استولى على منابع الثروة فيه من زراعة وصناعة وتجارة . ولم يدع وسيلة من الوسائل

الا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة وان اضر بجميع من حوله من سكان البقاع الاصليين . فانه انما يسعى الى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها انى وجدها وباى طريقة يرى النجاح فيها . وهو في الغالب يستعمل قوة عقله فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما . فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يمتلك او يستعمر لانه يجد ذلك متوفراً له في اعماله العقلية واختراعاته العلمية . وانما الذي يحمل الانكليزى على ان يسكن الهند والفرنساوي الجزائر والروسي الصين والالمانى زنجبار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها !

فان صادفوا أمة متوحشة مهما كان بأسها أبادوا أهلها وأهلكوهم أو أجلوهم عن أرضهم كما حصل في امريكا واستراليا وكما هو حاصل الآن في افريقيا حيث لا يرى أثر لاهالى البقاع التى احتلها الاوروباوى لانهم خرجوا منها طوعاً أو كرهاً . وان صادفوا أمة كأمتنا دخل فيها نوع من المدنية من قبل ولها ماض ودين وشرائع واخلاق وعوائد وشيء من النظامات الابتدائية خالطوا أهلها وتعاملوا معهم وعاشروهم

بالمعروف . لكن لا يمضي زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا يدهم على أهم أسباب الثروة لانهم أكثر مالا وعقلا وعرفاناً وقوة فيتقدمون كل يوم وكلما تقدموا في البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه داروين قانون التزاحم فى الحياة فطرة الله التى فطر عليها جميع الانواع وأودعها لها لتعدها الى الرقي في درجات الكمال . فما ضعف منها عند التزاحم عن مغالبة منازعه اضمحل ونبذه الوجود الى خفاء العدم . وما قوى عند التغالب اظفره الله بالنصر المبين فيرجع من ساحات هذا القتال الدائم مبرهناً بظفره على انه افضل بني نوعه واكرمهم فيعيش ويبقى ويتناسل وينمو ويظهر فيه كمال نوعه وتخلد به آثاره

فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها . وهي ان تستعد الامة لهذا القتال وتأخذ له اهبتها وتستجمع من القوة ما يساوي القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت : خصوصاً تلك القوة المعنوية وهي قوة العقل والعلم التي هي أساس كل قوة سواها

فاذا تعلمت الامة كما يتعلم مزاحموها . وسلكت في

التربية مسالكهم . وأخذت في الاعمال مآخذهم وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا به امكنها أن تعيش بجانبهم بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم فتستأثر بالخير دونهم . لان البلاد بلادها وأرضها أبرّ بها منها بالغريب عنها وابناءها اقدر على المعيشة فيها . وهم السواد الاعظم فكيف اذا ظفروا من انفسهم بتلك الحال الشريفة لا يفلحون

وهذه الطريق — طريق النجاة — كما قدمت مفتوحة امامنا ولا يوجد عائق يعوقنا عن السير فيها الا ما يكون من انفسنا

فان كان للمصريين همة وصدق عزيمة في طلب سعادتهم والمحافظة على بقائهم والسعي الى خلاصهم ونجاتهم من التهلكة فعليهم ان يسلكوا تلك الطريق ويخلعوا عنهم كل عادة سيئة وينزعوا من انفسهم كل خليقة ممقوتة تعطل مسيرهم . وليعتمدوا على انفسهم في اصلاح انفسهم . ولا يضيعوا اوقاتهم في اماني باطلة يلتمسون تحقيقها من حكومتهم فان حكومتهم لا تستطيع من العمل لهم الا قليلاً . أما هم فانهم يستطيعون أن يأتوا في اصلاح شؤونهم بالجم الكثير . ماذا يفيدهم أن يقولوا كل يوم أن الحكومة لم تقم بما يجب عليها ؟ أهذا يمنعنا من ان نفعل ما

يجب علينا لأنفسنا ؟

نحن اليوم متمتعون بعدل وحرية لا أظن أن مصر رأت ما يماثلهما في أى زمن من أزمانها . وهما الامران اللذان تحتاج اليهما الامة أشد الاحتياج ولا يتيسر بدونهما نجاح في عمل من الاعمال العظيمة التي يقوم بها اصلاحها . فما علينا الا ان نتهز فرصة ماوصلنا اليه ونحرث ارضنا ونسقي غراسها وننتظر ما يأتى به من الثمرات فاذا نضجت اقتطفناها . وكما أن الزراع يجب عليه قبل أن يلقي البذور في الارض ان يهتم بمعرفة طبيعتها وما تحتاج اليه من الاعمال لتحضيرها وتهيئتها حتى لا يضيع ماله وتعبه كذلك يجب علينا أن نبحث في أسباب تاخرنا . فاذا عرفناها عمدنا الى ازالتها وصنا أنفسنا من التخبط على غير هدى وارحنا انفسنا من التجارب العقيمة

وقبل الكلام فيما نريد البحث فيه نثبت هنا أمراً لاحظه كل من له المام باحوال الشرق : وهو تأخر المسلمين عام فيه أين كانوا . فالسبب يجب ان يكون عاماً أيضاً

أما اختلاف الشعوب والاقاليم فليس له تأثير كبير في انحطاط المسلمين . اذ لو كان له أثر لوجد اختلاف بين التركي

والمصري والهندي والفارسي والبشناقي والصيني من حيث العمران والمدنية ولكننا لا نرى اختلافاً بينهم من هذه الجهة وانما الاختلاف محصور فى بعض الصفات النفسانية وبعض العوائد . ذلك هو كل ما فعله اختلاف الشعوب والاقاليم . فالتركي مثلا نظيف صادق شجاع والمصرى على ضد ذلك الا انك تراهما رغما عن هذا الاختلاف متفقين في الجهل والكسل والانحطاط . اذاً لا بد ان يكون بينهما امر جامع وعلة مشتركة هي السبب الذي أوقعهما معاً في حالة واحدة

ولما لم يكن هناك امر يشمل المسلمين جميعاً الا الدين ذهب جمهور الاوروباويين وتبعهم قسم عظيم من نخبة المسلمين الى ان الدين هو السبب الوحيد في انحطاط المسلمين وتأخرهم عن غيرهم حتى الذين يشاركونهم في الاقليم ويساكنونهم فى البلد الواحد . ولم يقصد أحد منهم خصوصاً افاضل المسلمين المشتغلين باحوال الامم الاسلامية ان يتهم الدين الاسلامى الحقيقى بانه السبب في انحطاط المسلمين . فان كل من عرف هذا الدين من الاجانب فضلا عن ابنائه المنتسبين اليه يجل قدره ويحترمه ويعترف ان آثاره الماضية في الامم التي انتشر

بينها برهنت على انه وسيلة من أفضل الوسائل وعامل من أقوى العوامل التى تسوق الانسان في طرق الترقي والتقدم الى غايات السعادة . ولكنهم يرون انما يزعمه المسلمون اليوم ديناً وتسميه عامتهم بل وأغلب علمائهم بدين الاسلام قد اشتمل على امور كثيرة من عقائد وعوائد وآداب موهومة لا علاقة لها بالدين الحقيق الطاهر وانما هي بدع ومحدثات الصقت به : فهذا الخليط الذى سماه الناس ديناً واعتبروه اسلاماً هو المانع من الترقى .

وليس في امكان احد ان ينكر ان الدين الاسلامي قد تحول اليوم عن أصوله الاولى وان العلماء والفقهاء — الا قليلا ممن انار الله قلوبهم — قد لعبوا به كما شاءت أهواؤهم حتى صيروه سخرية وهزواً وحقت عليهم كلمة الكتاب: «واتخذوا دينهم هزواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا »

ولكنى أعتقد ان هذا الانحطاط الذى طرأ على الدين ليس سبباً لما عليه المسلمون الآن وانما هو نتيجة لامر : هو الجهل الفاشي في المسلمين عامة رجالا ونساء

كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه واصحابه كلهم

يخدمون الدين ويشتغلون بالدنيا في آن واحد . وصرحت السنة كما أجمعت عليه الأئمة بان لا قوام للدين الا بسلطة تحفظه . فلم يمض الا قرن واحد من عهد ظهور الاسلام حتى صار علم المسلمين يخفق على أهم أقسام العالم . ولم يكن الغرض من هذه الفتوحات العجيبة اكراه الناس على الاخذ بهذا الدين وانما كانوا يفتحون البلاد دفاعاً عن الحوز وتوسيعاً لنطاق الملك والسلطة والانتفاع بالصناعة والتجارة: وهو المقصد الذي يعمل له الاوروبايون في بلاد الشرق الآن

ثم لم يمض على ظهور الاسلام جيلان الا وقد اضاء الكون بنور العلوم التي نشرها المسلمون في كل أرض احتلوها وبلد أقاموا به فلم يتركوا فرعا من العلوم ولا فناً من الفنون الا تعلموه وألفوا فيه وزادوا عليه حتى العرب — تلك الامة الامية التي ربما صح فيها قول ابن خلدون انها لا تصلح للمدنية أبداً — اندفعت بقوة ذلك التيار وعامل تلك النهضة الى منافسة مواطنيهم في خدمة العلم . وكانت هذه الحركة عامة في كل ما يجول فيه الفكر ويمتد اليه النظر وتتناوله مدارك البشر : هذا يشتغل بعلوم الكلام . وآخر بالعلوم الطبيعية

وثالث بالفلك والحساب . ورابع بالتاريخ والجغرافيا . وخامس بالفلسفة والاخلاق . ولم يهملوا الصناعة والتجارة فبنوا وشيدوا وامتلأت سفنهم بالبضائع تجرى في البحار حول الارض . واستمر هذا الحال على ضرب من التفاوت بحسب الازمان الى ان رزئ المسلمون بوقائع التاتار في الشرق وانقراض الخلافة منه . وزالت دولة العرب من الاندلس وانتقلت العلوم الاسلامية الى أوروبا فرجع المسلمون الى حالة الجاهلية الاولى

ومن ذلك الحين انطفأ مصباح العلم من الشرق باجمعه واقتصر علماء الاسلام على النظر في شيء من علوم الكلام وبعض شيء من قواعد اللغة العربية وانصرفوا عن كل شيء سواها

ولما ساد الجهل على عقولهم وتراكمت ظلماته فى اذهانهم لم يعد في استطاعتهم أن يفهموا حقيقة الدين وشعروا أن ضعفهم لا يسمح لهم بان يصعدوا اليه بعقولهم فانزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد . ثم أخذوا يتصرفون فيه تصرف الغبي الاحمق : والجاهل كالطفل يغتر بنفسه ويعجب بمعارفه ويؤذي نفسه والناس معه

أنظر الى الجاهل تجده دائماً يختار من فكرين أقلهما صواباً

ومن طريقين أصعبهما ومن عملين أضرهما . ذلك لان الحق سواء كان فضيلة أو مصلحة يلتبس بالباطل ويخفى على الناظر فلا يراه الا بعيد النظر نافذ البصيرة في مصائر الامور وعواقبها ثم هو يحتاج في الوصول اليه الى عناء يفر منه الجاهل الكسول وفيه حرمان من لذة حالية في سبيل منفعة مستقبله

ومن رأى علمائنا اليوم أن الاشتغال بشؤون العالم والعلوم العقلية والمصالح الدنيوية شيء لا يعنيهم . وصار منتهى علمهم أن يعرفوا في اعراب البسملة مايزيد من غير مبالغة على الف وجه على الاقل . وان سألتهم عن شيء من الاشياء المتداولة في أيديهم كيف صنع أو عن حال الامة التي هم منها أو أمة أخرى تجاورهم أو الامة التي احتلت بلادهم أين موقعها الجغرافي وما منزلتها من القوة والضعف . بل لو سألت الواحد منهم عن وظيفة عضو من أعضائه أو مكانه من بدنه — هزوا اكتافهم ازدراء بالسائل والمسئلة واحتقاراً لهما . وان تكلمت معهم في نظام حكومتهم الداخلي وقوانينها وحالتهم السياسية والاقتصادية وجدتهم لا يدرون منها شيئاً . وسواء عاشوا في العز او في الذل فهم على كل حال عائشون وبما يخطون اليه راضون .

ويرون ان ليس للانسان أن يعمل لمصلحة نفسه وان يختارلها أمراً . ويزعمون انهم وكلوا جميع أمورهم الى ما يجرى به القضاء . مع انك تراهم أشد الناس احتيالا في طلب الرزق من غير وجهه واحرصهم على حفظ ما يجمعون من الحطام ونيل ما يتوهمونه شرفاً ورفعة ولذلك ضرب المثل بتحاسدهم فيما بينهم فهم في الحقيقة يريدون التخلص من مشقة العمل وانما يحتجون بالقدر تضليلا للعامة واقناعاً للسذج بانهم في تقصيرهم فى أداء ما فرضته عليهم الشريعة مقهورون بقوة القضاء

ظن هؤلاء المساكين انهم متى عرفوا كيف تستقيم العبارات وكيف تهذب الالفاظ بالاعراب والصرف عرفوا ما في الدين والدنيا . والبعد بينهم وبين الدين الحقيقي عظيم

قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في بيان ماجاء به الاسلام كلاماً نأخذ منه ماينا سب المقام هنا لانه أحسن ما كتب في هذا الزمان لتنبيه افكار المسلمين :

« طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل « نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت » فمن يعمل مثقال ذرة «خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » وان ليس

« للانسان الا ما سعى »، وأباح لكل أحد أن يتناول من
« الطيبات ما شاء اكلا وشرباً ولباساً وزينة . ولم يحظر
« عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو ما
« تعدى ضرره الى غيره . وحدد له في ذلك الحدود العامة
« بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل
« شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعى حتى
« لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به

« انحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه
«القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله
« الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان
« فى عقائد الامم . وصاح بالعقل صيحة ازعجته من سباته
« وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع
« من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم
« نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة
« كليلة والازواد قليلة

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بان
« الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على ان يهتدى

« بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل الحوادث . وانما
« المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون

« صرح في وصف أهل الحق بانهم ,, الذين يستمعون
«القول فيتبعون أحسنه ،، . فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير
« فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم
« يتبينوا صحته ونفعه . ومال على الرؤساء فانزلهم من مستو
« كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت انظار مرؤوسيهم
« يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون
« ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

« صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما
« توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين
« باقوال السابقين ونبه على أن السبق في الزمان ليس آية من آيات
«المرفان ولا مسمياً لمقول على عقول ولا لاذهان على اذهان
« وانما السابق واللاحق في التمييز و الفطرة سيان . بل اللاحق
«من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما
« وصل اليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من
« أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل

« الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم طغيان
« الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم ،، قل سيروا في الارض
« فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ،، . وأن أبواب فضل
« الله لم تغلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن
« تضيق عن دائب

« عاب أرباب الاديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم
« عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم: ،، بل نتبع ماوجدنا
عليه آباءنا ،، . اناوجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »(١)

ومما يستحق أن نفرح له هو أن نفراً من علماء عصرنا في مصر وفي غيرها من بلاد الاسلام شرقاً وغرباً يرون ما نرى ويقولون مانقول ويعترفون بان العلوم التي تقرأ الآن في الازهر وفي غيره لاتفيد ان لم تؤسس على الحقائق العلمية التي تهيئ العقول لقبولها والانتفاع بها

وفي الحقيقة أن علوم التوحيد والفقه لايمكن الانتفاع بها اذا لم يسبقها الالمام بالمعارف العامة والمباديء العلمية . أليس التوحيد هو خاتمة العلوم كلها وخلاصة مجموعها ؟ أليس الفقه علم

(١) رسالة التوحيد : صحيفة ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٢

شريعة كل نفس في ارتباطها بخالقها وفي معاملاتها مع بقية البشر وكلاهما يحتاج الى معرفة علم النفس وتشريح الجسم ووظائفه والتاريخ والرياضة والعلوم الطبيعية وغيرها مما تسمو به الافكار ويرتقي به العقل : أليس العلم في الحقيقة واحداً يشبه شجرة ذات فروع وأفنان تتصل كلها بأصل واحد وتتغذي من جذر واحد وتخدم حياة واحدة وتنتج ثمرة واحدة هي معرفة حقيقة كل شئ في الوجود

وما علينا الا ان نصغي لمقال هؤلاء العلماء الافاضل الذين هم أدرى منا بحاجات الدين ولا يخفى عليهم شئ من حاجات الدنيا وأن نعضدهم في مشروعاتهم الصالحة ليستيقظ الدين من نومته الطويلة ويذلل العقابات ويتغلب على المصاعب التي أقامها أهله في طريقه

ولا حاجة بنا الى التطويل في شرح أمر صار معلوماً عند الكل وهو انحطاط الدين اليوم في جميع مظاهره حتى في العبادات وانما أردنا ان نبين ان انحطاط الدين تابع لانحطاط العقول وأن العلة الاولى التي هي مصدر غيرها من العلل التي حالت بيننا وبين الترقي هي اهمال التربية في الرجال وفي النساء معاً

فان استمر ذلك السبب لم يصلح للامة حال بل يستمر كل أمر على حاله : والدين أيضاً . وان زال ذلك السبب صلح حال الامة في جميع مظاهر حياتها العقلية والادبية وصلح معها الدين أيضاً

أما ان تربية الرجال تصلح شأن الامة وتقوم اعوجاجها فهـذا مما صار معروفاً عند كل احد مسلماً عند الجميع . وأما وجوب تربية المرأة أيضاً فلا يزال محتاجاً الى البيان :

المرأة لا تكون خلقاً كاملاً الا اذا تمت تربيتها الجسمية والعقلية . أما تربيتها الجسمية فلانها لازمة لها في استكمال صحتها وحفظ جمالها . فيجب أن تربى كما يجب أن يربى الرجال على تمرين الجسم بالحركة والرياضة لان الجسم الضعيف لا يسكنه الا عقل ضعيف ولان ما يكثر عروضه للنساء من الاضطرابات العصبية والمخية انما هو ناشئ عن عدم انتظام وظائف اعضاء الجسم

فسلامة العقل في جميع مظاهره تابعة لسلامة الجسم . وهذا هو السر في تقدم الجنس الانكليزي السكسوني على غيره

ويرى القراء فى الكتاب الذى ترجمه صديق احمد فتحى

بك زغلول من اللغة الفرنساوية الى العربية (١) كيف ان نشاطهم وجراءتهم واقدامهم وتبصرهم وفطنتهم وجميع الصفات التي تعترف كل الامم بامتيازهم فيها عن سواهم هي نتيجة لعب الكرة والسباحة وركوب الخيل والحرية والاستقلال في الاعمال مما له دخل كبير في تربية اطفالهم ذكوراً واناثاً. ولهذا ابتدأ الفرنساويون وغيرهم في تقليدهم لانهم ادركوا ان تربية العقل التي اعتنوا بها لا تثمر ثمرتها الا اذا صحبتها تربية الجسم وان موازنة العقل لا تتم الا بموازنة وظائف الجسم . واذا تذكر القارئ ما سبق بيانه من ان الولد يرث من ابويه خصوصاً من أمه الحالة الجسمية والعقلية التي تكون عليها مدة حمله يعلم مقدار ما تستفيده المرأة والرجل والهيئة الاجتماعية كلها من الاعتناء بصحة المرأة

واما تربيتها العقلية فلانها بدونها تكون المرأة فاقدة لقيمتها كما هي حالتها الآن عندنا . نعم انها تلد ويحفظ بها النوع الانساني . لكنها في ذلك انما تؤدي وظيفة كل انثى من سائر انواع الحيوانات وهي لا تمتاز في عملها هذا عن نحو هرة ولود

(١) سر تقدم الانكليز السكسونيين

وفي الحق اننا ضيقنا دائرة وظيفة المرأة وخصصناها بالنتاج ولم نطلب منها شيئاً غير ذلك . وسببه اننا توهمنا ان المرأة لا تصلح لعمل آخر وان الرجال غير محتاجين للنساء فى القيام بشؤون الحياة الخاصة والعامة وغاب عنا ان الرجل انما يكون فى كبره كما هيأته والدته فى صغره

فهذا الارتباط التام بين الرجل وامه هو الامر المهم الذى اريد ان يفهمه الرجال . وهو ثمرة كل ما وضعته في هذا الكتاب

أنى اكرر ماقلته من أنه يستحيل تحصيل رجال ناجحين ان لم يكن لهم أمهات قادرات على أن يهيئنهم للنجاح . فتلك هي الوظيفة السامية التى عهد التمدن بها الى المرأة فى عصرنا هذا وهى تقوم باعبائها الثقيلة في كل البلاد المتمدنة حيث نراها تلد الاطفال ثم تصوغهم رجالاً

وبديهى أن العمل الاول وهو الولادة هو عمل بسيط مادى تشترك فيه المرأة مع الحيوانات فلا يحتاج الا الى بنية سليمة . أما العمل الثاني وهو التربية فهو عمل عقلى امتاز به النوع الانساني وهو محتاج في تأديته الى تربية واسعة واختبار

عظيم ومعارف مختلفة

والامر الذي يلزم أن تلتفت اليه كل أمـة لا تغفل عن مصالحها الحقيقيـة هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الامـة لان العائلة هي أساس الامـة . ولما كانت المرأة هي أساس العائلة كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية أول مؤثر في تقدم الامة وتأخرها

المرأة ميزان العائلة . فان كانت منحطة احتقرها زوجها وأهلها وأولادها وعاشوا جميعاً منحلين لا يرتبط بعضهم ببعض ولا يعرفون نظـاماً ولا ترتيبـاً في معيشتهم فتفسـد آدابهم وعوائدهم . أما ان كانت المرأة على جانب من العقل والادب هذبت جميع العائلة واحترمها افرادها واحترموا أنفسهم وعاش الجميع في نظام تام تحت لواء محبتها متضـامنين أقوياء باتحادهم وهذه الصفات التي تشاهد في العائلة هي الصفات التي تشاهد في الامة اذ كل منا يسلك في أمته مسلكه في عائلته . ومن المحال أن يكون للانسان من الصفات والاخلاق في أمته ما ليس له نموذج في منزله . وأن يعامل مواطنيه باخلاق غير التي يعـامل بها افراد عائلته . فان كان حسن الاخلاق

في عائلته كان كذلك في أمته وان كان سيء الاخلاق في عائلته ساءت أخلاقه في أمته أيضاً . ومن هذا يتبين مقدار عمل المرأة فى تقدم الامم وتأخرها

وبالجملة فان ارتقاء الامم يحتاج الى عوامل مختلفة متنوعة من اهمها ارتقاء المرأة . وانحطاط الامم ينشأ من عوامل مختلفة متنوعة أيضاً من أهمها انحطاط المرأة

فهذا الانحطاط في مرتبة المرأة عندنا هو أهم مانع يقف في سبيلنا ليصدنا عن التقدم الى ما فيه صلاحنا . وعلى هذا فليست تربية المرأة من الكماليات التي ينتظر بها مرور الازمان ويجوز الابطاء فى أعداد الوسائل لها كما يتوهمه كثير من الناس الذين يطنطنون بمزايا تربية الذكور ويقدمونها على تربية البنات . وانما هي من الحاجيات بل من الضروريات التى يجب البدء بها والعناية بتوفير ما يلزم لها من المعدات . وهي الواجب الخطير الذي ان قمنا به سهل علينا كل اصلاح سواه وان أهملناه أفسد علينا كل اصلاح سواه

دلت التربية الجديدة التي منحها نساء أوروبا من نحو قرن على أن المرأة ليست تلك الآلة البسيطة التى وقفها اولئك

الاسلاف الغافلون على التناسل . فبمجرد ما حل العقل محل القوة وحلت الحرية محل الاستبداد رأى العالم ان في المرأة أسراراً لم تعرفها الجاهلية الاولى وانها تصلح لوظائف سامية مثل التي يصلح لها الرجال وان انحطاطها كان عارضياً لا طبيعياً . فلما استيقظت من نومها واستنار عقلها واستقامت ملكاتها وتحلت نفسها بالفكر والعلم ومرنت قواها على العمل صعدت من العقل الى درجة وذهبت في رقة الشعور الى غاية لم تكن تخطر في خيال أحد من أهل تلك العصور الخالية . وهي الى الآن كلما تمتعت بحريتها زاد ارتقاؤها

كل مطلع على حركات النساء الغربيات واعمالهن لا يشك في انهن يأتين من الاعمال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه : لا يوجد فرع من فروع الصناعة والتجارة ولا علم من العلوم ولا فن من الفنون الا والمرأة عاملة فيه مع الرجل كتفاً لكتف . ولا يوجد عمل خيري الا وهي في أول العاملين فيه . ولا تقع حادثة سياسية الا وللمرأة نصيب فيها . وليس بين الصنفين فرق الا ان المرأة لم تنل الحقوق السياسية فاذا منحتها كما هو المنتظر في بلاد اوربا تمت المساواة بينهما . على انها قد نالت

منها الآن شيئاً كبيراً حيث خول لها حق الانتخاب في امريكا وفي انكلترا في المجالس البلدية وفي فرانسا في المحاكم التجارية وفي بعض ممالك الولايات المتحدة تجلس المرأة في المجالس الشورية . ولا تخلو اليوم عاصمة من عواصم اوربا وامريكا من جمعية للنساء همها أن تطالب بحقوق المرأة والسعي في سبيل اكتسابها . وكل سنة تمر تترك في تاريخ اعمالهن أثراً شريفاً وتنتهي بفوز جديد

ولا يشك أحد من الواقفين على هذه الحركة التي اظهر فيها هذا الصنف الضعيف قوة عجيبة ان المرأة لا بد ان تصل في زمن قريب الى مستوى تبلغ فيه منتهى ما تطلب من مساواتها للرجال في جميع الحقوق . ولا يعلم ماذا يكون بعد ذلك الا الله وهل يقف النساء عند هذا الحد او يسبقن الرجال في ميدان التقدم والترقي

ومن البديهي ان هذه القوى التي تصرفها النساء في التجارة والصناعة والفنون والعلوم وان كانت كل واحدة منها على حدتها لا يظهر اثرها للناظر في أحوال الامة ولكن لجميعها مجموع واحد يظهر أثره في احوالها تمام الظهور . وهي رأس مال عظيم

نحن مقصرون في العناية والانتفاع به

وعندى أن من أعظم ما يؤسف عليه حرمان بلادنا من اعمال النساء الخيرية . لان الميل الى الخير من غرائز المرأة الفطرية ويقودها اليه رقة الاحساس وحنو القلب . ولها من الصبر على خدمة الفقراء والمرضى ما لا يتحمله أعظم الرجال جلداً . ولها اعتناء جميل واندفاع قلبي وهذه الصفات توجد عند النساء في الغالب . غير ان المرأة الجاهلة لا تجد من نفسها مرشداً يهديها الى سبل الخير فتصرف ما اودعه قلبها من كنوز الرحمة فى أصغر الامور واحقرها

هذا هو عمل المرأة فى الامم المتمدنة وقد وجد في مبدأ الاسلام عدد غير قليل من النساء كان لهن أثر فى مصالح المسلمين العامة فجميع المسلمين يعلمون ان طائفة عظيمة من الاحاديث النبوية على اختلاف مواضيعها قد رويت عن عائشة وأم سلمة وغيرهما من أمهات المؤمنين ونساء الصحابة . وأن عدداً غير قليل من النساء اشتهرن بخدمة العلم وجودة الشعر . وان عائشة تداخلت فى مسئلة الخلافة العظمى وكانت رئيسة للحزب المعارض لاحد الخلفاء . واني اورد هنا بعض ما خطبت به على الناس تحملهم

على الانضمام الى الطائفة التي كانت قد انحازت اليها وهي الخطبة التي القتها عند دخولها البصرة

« ان النوغاء من أهل الامصار ونزاع القبائل غزوا حرم
« رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه الاحداث وآووا
« فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا
« من قتل امام المسلمين (عثمان) بلا ترةٍ ولا عذر . فاستحلوا
« الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام
« والشهر الحرام . ومزقوا الاعراض والجلود واقاموا في دار
« قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا
« متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في
« المسلمين اعلمهم ما اتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا
« وما ينبغي لهم ان يأتوا في اصلاح هذا وقرأت : (لا خير
« في كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح
« بين الناس) نهض في الاصلاح ممن امر الله عز وجل
« وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر
« والانثى فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه .

« ومنكر نهاكم عنه ونحثكم على تغييره » (١)

ويروى عن ام عطية انها قالت : (وغزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات وكنت اخلفهم في رحالهم واصنع لهم الطعام واداوى الجرحى واقوم على المرضى

والذى يقرأ هذه الاسطر يتخيل له انه يرى امرأة غربية من الممرضات اللاتي وهبن حياتهن لخدمة الانسانية

والناظر في الاحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة مثل الخلافة والامامة والشهادة فى بعض الاحوال لايجد واحدة منها تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها . وان الشارع لم يراع في هذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها في العائلة وحصر الوظائف العمومية في الرجال . وهو تقسيم طبيعي جرى على مقتضاه الى الآن المدن فى أوربا ولا يوجد فيه شيء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى اعلى مرتبة تستحقها . وما من عاقل يدرك الغرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التي خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة في جميع الاعمال المدنية — ومنها أهليتها لان تكون

(١) تاريخ الطبرى جزء سادس صحيفة ٣١١٦

وصية على رجل — يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التي تؤدي الى حرمان المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق

والقارىء الذي تتبع سلسلة القواعد الكلية التي سردتها بغاية الايجاز لا بد أن يكون قد لاحظ أنها كلها تتلخص في عبارة واحدة هي : أنه لا بد لحسن حال الامة من أن تحسن حال المرأة . فاذا ارسل الناظر فكره ليحيط باطراف هذا الموضوع اواسع وبجميع ما يرتبط به من المسائل انجلت له الحقيقة وتجلت له بجميع أسرارها فيرى صورة لا تشابه الخيال الذي كان يظنه جسما . يرى المرأة التي يهيئها المستقبل تتلألأ في أنوار جمالها ظاهرة مظهرها الفطري ولابسة حلة كمالها الثنائي : الجسم والعقل

العـــائلة

—

لا يتم اصلاح حال المرأة بمجرد التربية وحدها بل يحتاج الى تكميل نظام العائلة . نعم ان ارتقاء مدارك المرأة مما يساعد على كمال نظام العائلة ولـكن هذا النظام نفسه على ما به من الارتباط بالعوائد والاحكام الشرعية له هو الآخر دخل كبير في ارتقـاء المرأة وانحطاطهـا . ولهـذا رأينـا من الضروري استلفات الذهن الى أهم المسائل التى تمس بحيـاة العائلة وهى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق . وسنتكلم عليها باختصار على هذا الترتيب

١

الزواج

رأيت في كتب الفقهاء أنهم يعرفون الزواج بانه « عقد